

الأسلوبية عند نيتشه؛ حالة سيكولوجية أم قدرة إبداعية؟

Is the Stylistics of Nietzsche a psychological state or creative faculty?

مزي عبد القادر – أستاذ محاضر أ (abdelkader.mzi@univ-bechar.dz)	فلسفة اللغة	جامعة طاهري محمد – بشار/ الجزائر
DOI :		

الإرسال: 2022/03/26 القبول: 2022/05/06 النشر: 2022/07/01

ملخص:

من خلال قراءته لتاريخ الفلسفة والفن اليونانيّين قراءة نقدية استطاع 'نيتشه' أن يبدع أسلوبا متميزا عمل من خلاله على قلب الفلسفة رأسًا على عقب، باعتماده على المنهج الفيلولوجي من جهة وعلى الجينولوجيا من جهة أخرى. لذلك يمكن اعتبار أسلوب 'نيتشه' أسلوبا غير مألوف في الكتابات الفلسفية النَّسَقِيَّة الكلاسيكية.

يمثل 'نيتشه' استثناءً في تاريخ الفلسفة، إذ تَمَيَّزَ بعمق فلسفي وبأسلوب لم يكن شائعا عند نظرائه من فلاسفة العصر الحديث، فاستطاع صياغة أسلوب زعزع به كبرى اليقنيات الفلسفية التي خضع لها العقل الفلسفي منذ 'سقراط'، إذ لم يعد العقل مصدر اليقين المطلق ولا معيارا للصدق والكذب والكشف عن الحقيقة الجوهرية للموجودات كما راهنت على ذلك الحكمة الفلسفية منذ نشأتها، بل هو مجرد عضو صغير يسكن جسدنا الكبير.

هل أسلوب الكتابة الشذرية عند 'نيتشه' هو تَمَلُّصٌ من قواعد اللُّغة وأنظمتها القتالية للخُلُق والإبداع، أو تَحَلُّلٌ من مُضَائِقَات النَّسَقِ الفلسفي الغارق في الصَّرَامَةِ المنطقية، أم هو مُجَرَّد تَجَلٍّ تعبري لحالة وجدانية وتعقيدات سيكولوجية مثقلة بالتناقض حيث تَصَدُّعُ الأنا؟

كلمات مفتاحية: الفلسفة والفن اليونانيّين؛ قراءة نقدية؛ نيتشه؛ المنهج الفيلولوجي؛ الجينولوجيا؛ الأسلوبية؛ العقل الفلسفي؛ الكتابة الشذرية؛ قواعد اللغة؛ النسق الفلسفي.

Abstract:

During the critical reading of the history of philosophy and Greek art, Nietzsche was able to create a distinct style in which he distressed philosophy, relying on the philological method on the one hand, and on genealogy the other. Therefore, the Nietzschean style can be considered an unusual style in classical philosophical writings.

Nietzsche formulated a style that disturbed the great philosophical truths submitted by the philosophical spirit of the "Socrates", because the spirit is no longer the origin of absolute certainty and no longer the criterion of truth and lies.

Maghreb Journal of Historical and Social Studies - Sidi Bel-Abbes University

ISSN : 2170-0060 EISSN : 2602-523X

Volume 14 -- Issue 01 -- July 2022

المؤلف المراسل: مزي عبد القادر البريد الإلكتروني: abdelkader.mzi@univ-bechar.dz

To unveil the true essence of entities such as philosophical wisdom has pledged since its genesis, but only a small part that dwells in a large body.

Is Nietzsche's fragmentary style of writing an escape from the rules of language and its fatal systems of creation and creativity, or a dissolution of the contraries of philosophical context steeped in logical rigor, or is it simply a manifestation expressive of an emotional state and of the psychological complexities charged with contradiction in which the ego immerses itself?

Keywords : Philosophy and Greek art; the critical reading; Nietzsche; the philological method; genealogy; Stylistics; the philosophical spirit; fragmentary style of writing; the rules of language; philosophical system.

مقدمة:

يُعتَبَرُ الأسلوب من منظور الكثير من النقاد "طريقة في الكتابة لكاتب من الكتاب، ولجنس من الأجناس ولعصر من العصور" (جيرو. ب، ص 09)، وعند البعض الأسلوبية أو الأسلوب، هو "علم التعبير، وهي نقد للأساليب الفردية" (جيرو. ب، ص 09)، بمعنى أن فن الأسلوب ليس مجرد طريقة في التعبير وإنما هو أيضا الإحاطة معرفة و"دراسة للتعبير اللساني" (جيرو. ب، ص 10).

إذا كان فعل الكتابة ليس أمراً متاحاً للجميع، فهذا يعني أنه يتوجب على كل كاتب، ضرورة "التعامل مع الكلمة كفن الصياغة" (نتشه. ن، الفجر، 2013، ص 12)، فبينما يعتمد بعض الكتاب بحسب موضوع الكتابة لديهم إلى "الاختيار الواعي لأدوات التعبير" (جيرو. ب، ص 11)، من مقاطع وتمفصلات خطابية خاضعة لمجمل قوانين اللغة النحوية والصرفية والدلالية والنظم البيانية، يتجه آخرون بحثاً لأجل "تحديد القوى الغامضة التي تكون اللغة في اللاشعور" (جيرو. ب، ص 11).

لقد أدّى تطور فن الكتابة والتعبير تاريخياً إلى تنوع أجناس التعبير والخطابات البشرية تماشياً مع المطالب والموضوعات والأغراض، بحيث أن "كل جنس يتناسب مع طرق للتعبير ضرورية، ومحددة بدقة. وهي تُعَيِّن ليس التركيب فقط، ولكن تُعَيِّن أيضاً المفردات، والنحو، والصور، والمحسنات" (جيرو. ب، ص 23).

هكذا مثلت اللغة وسيلة لا يمكن الاستغناء عنها بحكم خصائصها في تحويل التصورات والأشياء إلى كلمات ومفاهيم بُغية إدراك الأشياء وفهم العالم وتفسيره، وعليه

فقد "أصبحت آلية المفاهيم والأحكام والاستنتاجات منذ أيام سقراط تعتبر النشاط الأرقى للإنسان" (نتشه. ف، مولد التراجيديا، 2008، ص 185).

إذا كان اللغة أهمية كبيرة بالنسبة "لتطور الحضارة في كون الإنسان قد أسس داخلها عالما خاصا به موازيا للعالم الآخر" (نتشه. ف، إنساني مفرط في إنسانيته (كتاب للمفكرين الأحرار)، 2014، ص 31)، فيجب مع ذلك الحذر من فخاخ اللغة أيضا، بخاصة وأن "الإنسان ظل يعتقد على مر عصور طويلة في المفاهيم وأسماء الأشياء كحقائق خالدة" (نتشه. ف، إنساني مفرط في إنسانيته (كتاب للمفكرين الأحرار)، 2014، ص 31). لقد اعتقد الإنسان حقا أنه بواسطة اللغة استطاع أن يكتسب معرفة حقيقية بالعالم¹، وهكذا أصبح بحكم سذاجته المتسمة بالغلو "يعتبر نفسه هو معنى الأشياء ومعياريها" (نتشه. ف، إرادة القوة (محاولة لقلب القيم)، 2011، ص 18).

إن تحسين الأسلوب ببديع الألفاظ والصور والمحسنات البيانية واللفظية، هو أرقى ما انتهت إليه بلاغة الخطباء شعرا ونثرا، فكان من نتائج ذلك ظهور وشيوع استعمال أهم المجازات اللفظية المتداولة في مجال التعبير، نحو: "الاستعارة، والمجاز الصوري، والإلماح، والسخرية، والتهكم، والحقيقة العرفية، ومجاز الحالية، والمجاز المرسل، والكناية، والتورية، ومجاز العلمية، وطلب النتيجة من وراء السبب، وقلب المعنى، إلى آخره." (جيرو. ب، ص 26).

رغم التباس اللغوي بالفلسفي، فقد كان الرّهان الأساس الذي قامت عليه الفلسفة منذ قرونها الأولى هو إخراج الفكر البشري من "الميثوس"، أي الخطابات الأسطورية والحكايات الخرافية في فهم الوجود، إلى "اللُوغُوس" كخطاب عقلاني يقوم على المنطق والبرهان والاستدلال في فهم ظواهر الوجود. وهنا يكمن داء الفلسفة اللّعين، داء

¹- كتب 'نتشه' في ذلك: "كان يعتقد حقا أنه استطاع بواسطة اللغة أن يكتسب معرفة العالم. ولم يكن صانع الكلام على قدر من التواضع كي يفكر بأنه إنما كان يمنح الأشياء مجرد تسميات، بل كان يتصور أنه يعبر عن العلم الأرقى بالأشياء من خلال الكلمات؛ في حين ليست اللغة في الواقع سوى الدرجة الأولى من مسار السعي إلى العلم." (نتشه. ف، إنساني مفرط في إنسانيته (كتاب للمفكرين الأحرار)، 2014، ص 31).

التباس ظاهر الكلام وبعده الفيزيولوجي ببعده النفسي (المعاني والدلالات). ذلك ما انتبه إليه 'نتشه'، فعمد إلى مراودة الحقيقة باللغة ومراودة وتطويع اللغة كفن لمجاراة الحقيقة الفلسفية التي سلكت طرق التخفي القائم على الإغراء.

تستعرض صلب الموضوع، وبعض خلفياته، وسياقه العام، والهدف من خوض غمار البحث فيه، والإجراءات المنهجية المتبعة، ويستحسن أن تنتهي ببلورة مشكلة الدراسة موضوع المقال في قالب استفهامي.

الإشكالية:

هل أسلوب الكتابة الشذريّة عند 'نتشه' هو تَمَلُّصٌ من قواعد اللغة وأنظمتها القائلة للخلق والإبداع، أو تَحَلُّلٌ من مُضَايِقَاتِ الدَّسَقِ الفلسفي الغارق في الصَّرامة المنطقية، أم هو مجرد تَجَلٍّ تعبيري لحالة وجدانية وتعقيدات سيكولوجية مُثْقَلَةٌ بالتناقض حيث تَصَدُّعُ الأنا؟

العرض:

أولاً: اللوغوس واللغة/أو السجن العظيم؛

منذ 'هيراقليطس'، الذي اعتبر "اللوغوس" القانون الكلي الذي يدير الكون حتى في تحولات الأضداد، إذ "حتى الشمس لا يمكن أن تتخطى اللوغوس" (السوفييت، 1976، ص 71)، ومرورا بـ'الرواقين' الذين اعتبروه القانون الفعال في كل شيء، إلى المرحلة الأثينية حيث تكتمل الرؤية من خلال نُضْجِ الفلسفة اليونانية وانتشار الحكمة السُّقراطية التي ورثها أفلاطون¹ ووَرَّثَهَا لمن أتى بعده، وجهود أرسطو في المنطق الذي استدعته ضرورة وضع قواعد وقوانينِ النَّقَاشِ السَّليم. منذ تلك المرحلة إلى غاية الفلسفة الحديثة، عمل

¹ - "لم يكن المفهوم عند سقراط سوى مجرد قاعدة للفكر. والتعريفات التي هي أشبه بقضبان السكك الحديدية المرشدة تبقي الفكر الصحيح على الدرب الصحيح (...). ولكن ما كان بالنسبة لسقراط مجرد تنظيم الفكر يحوله أفلاطون إلى جوهر ميتافيزيقي (...). المفهوم ليس مجرد فكرة في العقل بل هو شيء له حقيقته الخاصة به" (ستيس. و، 2005، ص 125).

الفلاسفة على تطوير أنساق كبرى مُحاولين تفسير العالم وفق ما تقتضيه قواعد 'الأورغانون' مبدأً عاماً يخضع له كل نشاط فكري.

لذلك لم يكن 'نتشه' يوما راض عمّا آلت إليه الفلسفة، ففي نظره يبدو أن "كل ما دبره الفلاسفة منذ أَلَفَيَات لم يكن سوى موميات أفكار؛ لا شيء حقيقي خرج حياً من بين أيديهم. عندما يتدله هؤلاء السادة المولعون بالمفاهيم المجردة يقتلون، يحشون بالقش، يعرضون كل شيء لخطر الموت" (نتشه. ف، أقول الأصنام، 1986، ص 25).

بمعنى آخر؛ يجب إحداث ثورة لإنقاذ الفلسفة من حَتْفِها المشؤوم الذي صارت إليه بسبب الفلاسفة أنفسهم، وذلك راجع في الأساس لانغلاق الرؤية لديهم بسبب انحباس أفكارهم داخل أنساقهم التي اخترعوها والتي ولّدت "غياب الحس التاريخي لديهم، حقدهم على فكرة الصيرورة نفسها" (نتشه. ف، أقول الأصنام، 1986، ص 25).

هكذا نتيّـن مع 'نتشه' أن "الأنساق الفلسفية ليست صحيحة كلياً إلا بالنسبة للذين أسسوها" (نتشه. ف، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، 1983، ص 37)، بل إن النسق أو على الأقل جزءاً مهماً منه هو بمثابة النبتة التي "انبثقت عن هذه الأرض أو تلك" (نتشه. ف، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، 1983، ص 37)، فلا "سقراط ولا 'مرضاه' اختاروا طوعاً أن يكونوا منطقيين _كان ذلك_ لازماً بالنسبة إليهم، كان ملاذهم الأخير (...). كان الإنسان في خطر، ولم يكن له من اختيار سوى الاضمحلال أو التظاهر بأنه منطقي حتى العبث" (نتشه. ف، أقول الأصنام، 1986، ص 23).

إنه وضع يدعو إلى الرّيبة والشك في الجدوى من الفلسفة أصلاً، فأين نقع مثلاً "على مثال لشعب مريض استطاعت الفلسفة أن ترد له عافيته المفقودة" (نتشه. ف، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، 1983، ص 38، 39)، بل يظهر أنه في حال 'سقراط' خاصة _حسب 'نتشه'_ وفلاسفة الإغريق عموماً، كلهم انطلقوا من دوافع مَرَضِيَّة يتعيّن علينا إصلاحها وتطعيمها. ألا يمكن اعتبار 'سقراط' "هو الأكثر دهاء من بين كل أولئك الذين خدعوا أنفسهم؟ هل اعترف بذلك لنفسه في اللحظة الأخيرة، في حكمة جسارته على الموت؟ لقد أراد سقراط أن يقضي نحبه: - ليست أثينا، إنه هو نفسه الذي مد لنفسه كأس سُمّ الشوكران، لقد أرغم أثينا على أن تمدّها إياه.. 'سقراط' ليس طبيباً همس لنفسه:

وحده الموت هو الطبيب.. أما سقراط فلم يكن إلا مريضاً لزمن طويل" (نتشه. ف، أفول الأصنام، 1986، ص 24).

لا معنى لأن نتفلسف حتى "يكون العالم أصبح يبدو لنا، بعد هذا البحث، بلا قيمة" (نتشه. ف، إرادة القوة (محاولة لقلب القيم)، 2011، ص 17)؛ في الأصل "يجب أن نتفلسف حين نكون سعداء، في مكتمل العمر، مسلحين بالابتهاج الغامر الذي يسببه النضج الرجولي المتين والمنتصر" (نتشه. ف، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، 1983، ص 39).

لقد أدخل الفلاسفة الإغريق وسقراط على وجه الخصوص الجنس البشري في دوامة اليأس الخالي من كل مَرَحٍ وُجُودي، وذلك من خلال ربطهم في حالة تلازم بين (العقل/الفضيلة/السعادة)¹، لا شك أنه مزاج بائس يائس من الاهتمام إلى سبل الحياة، لقد أضحت الفلسفة تعبيراً عن العدمية من فرط الاستياء.

إن 'سقراط' هو المثال السيء لانجراف الفلسفة الضَّعِيف؛ ذلك لأن "المعادلة 'عقل=فضيلة=سعادة' تعني فقط: يجب أن نفعل مثل سقراط، وأن نقيم ضد الشهوات المظلمة نورا سرمدياً: نور وضح نهار العقل. يجب أن يكون المرء صاحباً، واضحاً، منيراً، مهما كان الثمن؛ كل تنازل لصالح الغرائز، لصالح اللاشعور، يقود إلى الهاوية..." (نتشه. ف، أفول الأصنام، 1986، ص 23)، ببساطة يمكننا القول: إن "الإيمان بمقولات العقل هي علة العدمية" (نتشه. ف، إرادة القوة (محاولة لقلب القيم)، 2011، ص 17).

لا يمكن الاهتمام إلى فهم وإدراك علة هذا الفساد الفلسفي العظيم إلا بإعادة قراءة واستظهار الإرث الفلسفي الإغريقي في منابعه الأولى (الأسطورة والفن خاصة)، لكن وفق مناهج وأساليب جديدة تقلب الفلسفة رأساً على عقب. وعليه فمن واجبنا التساؤل في ظل تنامي الدراسات اللغوية عن "آية إشارات يوفرها علم اللغة، والبحث الاشتقاقي على

¹ - هذا ما يعتقد 'نتشه': "إنني أجهد نفسي لمعرفة المزاج الذي وجدت منه هذه المعادلة السُّقراطية: عقل=فضيلة=سعادة، أغرب المعادلات الممكنة، والتي تقابلها، على الخصوص كل غرائز الإغريق القدامى." (نتشه. ف، أفول الأصنام، 1986، ص 20).

الخصوص، بالنسبة إلى تاريخ تطور المفهومات الأخلاقية؟" (نتشه. ف، في جينيا لوجيا الأخلاق (كتاب سجالي)، 2010، ص 79).

تمثل الأسطورة مرتع الفن الإغريقي، فكلاهما يمكن اعتباره تجليا للآخر، وهما معا لا يمكن فصلهما عن الفلسفة اليونانية حتى عند بلوغها ذروتها، مما يعني أنه لا مناص من بحثهما لأجل فهم المحرك والدينامو الخفي للثقافة اليونانية عموما. فهل يعني ذلك أن الفلسفة تمارس فن التَنَكُّر_مما يستدعي تَعَرِّيَتَهَا_ حسب 'نتشه' على الأقل؟

يبدو أن الفلاسفة القدامى قد أوروثوا فقهاء اللغة "كمية كبيرة من العمل الشاق بل والقذر، ما يزال يتطلب بذلها قبل كل شيء: كل هذا يشكل شُغلا كثيرا" (نتشه. ف، العلم المرح، 1993، ص 115)، فللخروج من هذا النفق، و"لكي نبلغ المعرفة الآن علينا أن نتعثر في كلمات شديدة القدم وصلبة كالحجارة" (نتشه. ف، الفجر، 2013، ص 42).

لغة الفن إذن هي المدخل إلى فهم الجذور الثقافية لأية حضارة من الحضارات، والفن بصفة عامة هو القاع والسطحي في الآن معا، بينما الفكر الواعي _ الفلسفة والمعارف _ ليس سوى حالة التوسط بين السطح والقاع العميق. فلا غرابة أن نجد 'الطبل' – باعتباره رمزا للفن _ هو الذي استولى على عرش الفصاحة تاريخيا؛ إن قرع الطبل هو الذي ملك الفصاحة الأكثر إقناعا حتى الوقت الحاضر، و"ما دام تحت نفوذ الملوك فإنهم سيظلون أجود الخطباء ومهيبي الشعوب" (نتشه. ف، العلم المرح، 1993، ص 147).

مما سبق، تبدو الفلسفة _ اليونانية على الأقل _ مسرحة لأحداث تراجيدية يحاول فيها 'اللوغوس' التربع على السطح مدعيا تأصله في العمق، بينما يترك 'الميثوس' المشهد الاحتفالي الطقوسي الشعائري. لكن قراءة أصيلة لمنابع الفن يمكنها أن تخرجنا من الوهم الحالم، ذلك حين ندرك أن الفن اليوناني كان دوما "يستمد مقومات نموه المستمرة من الثنائية المتمثلة في أبولو وديونيس". (نتشه. ف، مولد التراجيديا، 2008، ص 79).

إن "بين الفن الأبولي في النحت وبين فن الموسيقى الديونيسي اللابصري" (نتشه. ف، مولد التراجيديا، 2008، ص 79)؛ أي بين الوضع الساكن الحالم والوضع النشوان والحي المنتبهي فرحا للمحتفلين الديونيسييين "تصبح النزعة الذاتية نسيانا للذات" (نتشه. ف، مولد التراجيديا، 2008، ص 84). هكذا أصبح _وإلى الأبد_ "الإغريق هوميرون (نسبة إلى

هوميروس) حاملون" (نتشه. ف، مولد التراجيديا، 2008، ص 88)، حاملون بين مهارة الفنان النحات والشاعر الملحي مؤسس المسرح والكوميديا.

لقد نبتت الفلسفة وذاع صيتها كتمثيل لثقافة شعب اليونان بين ذلك "التعارض الهائل، هذه الثغرة المتوسعة بين الفنون التشكيلية الأبولية وبين الموسيقى الديونيسية" (نتشه. ف، مولد التراجيديا، 2008، ص 189)، رغم أن "الموسيقى تمثل لمبادئ جمالية مختلفة تماما عن مبادئ الفنون البصرية، ولا يمكن قياسها بمقاييس جمالية" (نتشه. ف، مولد التراجيديا، 2008، ص 190).

للتوضيح أكثر، نخلص إلى أن "الدافع الأبولي نحو الجمال أدى تدريجيا وعلى مراحل، إلى انبثاق النظام الأولي لآلهة الفرح من النمط الأصلي التيتاني (آلهة العمالة) وانتشاره" (نتشه. ف، مولد التراجيديا، 2008، ص 94)، فـ'أبولو' يمثل تجسيدا للفكرة العبقرية التي استدعت رتابة الحقيقة، أي كسبيل وحيد للبحث عن "الخلاص الحقيقي" (نتشه. ف، مولد التراجيديا، 2008، ص 189).

بينما علينا من جهة ثانية أن نتبين بوضوح و"نتخيل كيف دخل هذا الصوت اللذيذ، صوت مهرجان ديونيس، إلى هذا العالم بنغمات أشد سحرا وأسرا. ولنتذكر أنه في هذه الألحان يصبح تطرف الطبيعة في حالات الفرح والأسى والمعرفة مسموعا، بل يتحول إلى صراخ حاد" (نتشه. ف، مولد التراجيديا، 2008، ص 101).

هذا التباين الظاهر الذي يرجع بالأساس إلى طبيعة كل فن، يجعل "سحر الفردانية في صيحة انتصار ديونيس الصوفية مقطوعة والسبيل مفتوح للوصول إلى أمهات الوجود، إلى جوهر الأشياء" (نتشه. ف، مولد التراجيديا، 2008، ص 189)، ذلك لأن "ذاكرة الإنسان تحفظ بيت شعر أحسن من خطاب عفوي" (نتشه. ف، العلم المرح، 1993، ص 102)، كما أن في "الإيقاع إرغام، يولد رغبة في الخضوع لا تقاوم" (نتشه. ف، العلم المرح، 1993، ص 102).

إن يؤس الفلسفة ناتج عن انخداع بصيرة اليونان برتابة الحقيقة التي هي في الأصل ليست سوى ذلك الوهم الذي يجد استراحته الأبدية في رمزية 'أبولو'، فالإيليون كانوا "قد ابتكروا الحكيم باعتباره رجل الاستقرار، رجل اللاشخصية، رجل كونية الحدس، بمثابة

الواحد والكل في نفس الوقت" (نتشه. ف، العلم المرح، 1993، ص 124)، لكنها حكمة أدت في الأخير إلى وأد الحياة، قتل الحياة باجْتِنَاث أصولها ومنابتها (الحواس).

لم تستطع الفلسفة بعد ذلك التنصّل من عَوْدِها الأبدي واختبائها في أنساقها التي أصبحت عبئا يجب تجاوزه وتخطّيه، فحتى خلال القرون الثلاثة (17/18/19)، لم تتمكن من ابتداء نزعة تطورية من شأنها المضي بالبشرية قدما. هكذا تكون السمة الرئيسة للعصور الحديثة ارتسمت بوضوح، حيث "فقد الإنسان في نظر نفسه، قدرا كبيرا من كرامته" (نتشه. ف، إرادة القوة (محاولة لقلب القيم)، 2011، ص 15).

إنه نوع من التواطؤ المخزي من طرف طبقة الحاذقين من صنف الفلاسفة، باستعمالهم حيلة مخادعة، كحيلة 'كانط'. لقد كان 'كانط' يريد أن يبرهن، بطريقة تهر عين (الكل)، أن (الكل) كان على حق: _ هنا كانت تكمن الحيلة السرية لهاته الروح. فقد كتب ضد العلماء، لصالح الحكم الشعبي المسبق، لكنه كتب للعلماء لا للشعب. (نتشه. ف، العلم المرح، 1993، ص 150).

يمكن القول بأن للجينيولوجيا (Généalogie)، باعتبارها منهجا لفهم وتأويل الحقائق، تأثيرا كبيرا ودورا فعالا في إمطة اللثام عن سَوَاء ومغالطات العقل الفلسفي وتعرية مُسُوخ الواقع الذي تزيّن بأثواب قيمية ليحافظ على استمرارته وتأبّده، إذ أنها تساهم في دراسة ظواهر وأسباب تحول القيمة تاريخيا.

لحسن الحظ، وفي أيامنا هذه "بدأ الناس يلمحون أنهم باعترادهم في اللغة، روجوا خطأ فادحا." (Nietzsche. F, p. 29)، فعن طريق الفيلولوجيا (Philologie)، سيتبين لنا بأننا جميعا ضحية أوهام اللغة والقواعد اللغوية التي أسَرَت الفهم البشري عقودا طويلة.

¹- إن "القرون الثلاثة – يمكن التعبير عن حساسيتها المختلفة أفضل ما يمكن كالتالي: أ. الأرسطوقراطية: ديكرت، سيادة العقل، دليل على سيادة الإرادة؛
ب. النسوية: روسو، سيادة العاطفة، دليل على سيادة الحواس، كاذبة (النسوية)؛ ج. الحيوانية: شوبنهاور، سيادة الشهوات، دليل على سيادة الغرائز الحيوانية، حقيقية أكثر ولكنها أكثر غموضا."
(نتشه. ف، إرادة القوة (محاولة لقلب القيم)، 2011، ص 34).

حيث "البيان الطلي يستحيل (..) إلى تلاعب ألفاظ وسخائف تغص بها جداول الصحف، فإذا هي مصارف وأقذار." (نيتشه. ف، هكذا تكلم زرادشت (كتاب للكل ولا لأحد)، 2014، ص 213).

هكذا يكون 'نيتشه' قد فقد ثقته "في معاني الكلمات" (نيتشه. ف، هكذا تكلم زرادشت (كتاب للكل ولا لأحد)، 2014، ص 308)، وذلك رغم أن "اللغة هي فعلا أولى درجات السعي إلى اكتساب العلم، إنها الإيمان بالحقيقة المكتشفة التي تفرعت عنها، من هنا أيضا منابع القوة الأكثر صلابة." (Nietzsche. F, p. 29).

تتسرب الأوهام إلى معارفنا حين نعتقد في الأسماء والمفاهيم والكلمات وكأنها تحمل في ذاتها حقائق الأشياء أو المسميات ف"ما أعطيت الأسماء والأصوات إلا لتثديد عزم الإنسان، وهل اللغة إلا جنون له لذته؟ أفما ترى الإنسان يرقص بيانه على كل شيء." (نيتشه. ف، هكذا تكلم زرادشت (كتاب للكل ولا لأحد)، 2014، ص 254)، ف"ما أَلَدَّ الكلمات وما أحلى خداع الأصوات. فإنها ترقص حينا على جميع ما في قوس قزح من الألوان." (نيتشه. ف، هكذا تكلم زرادشت (كتاب للكل ولا لأحد)، 2014، ص 255).

بفضل تكوينه اللغوي واطلاعه على مقتضيات الدلالة التي تيسرت له عن طريق الفيلولوجيا، استطاع 'نيتشه' الانتباه إلى خطورة الالتباس بين الدال والمدلول، فعمد إلى تفجير تلك العلاقة القائمة على التواطؤ الحادث بفعل التاريخ والزمن، لذلك؛ "فالحقيقة إن هي إلا جيش من الاستعارات القديمة تكلس واستقر." (المسيحي. ع، ص 110). الطرح ذاته الذي ذهب إليه 'ميشال فوكو' في كتابه 'الكلمات والأشياء'؛ حيث "لَعِبَتْ مقولُهُ التَّشَابُهِ 'Ressemblance' دورا تأسيسيا في المجال المعرفي للثقافة الغربية، وذلك حتى نهاية القرن السادس عشر." (Foucault. M, 1966, p. 179).

إذن؛ لا يمكن لأشباه القراء إلا أن يكونوا مَحَلَّ بُغْضٍ من طرف 'نيتشه'، وهو الذي ييغض "كل قارئ كسول" (نيتشه. ف، هكذا تكلم زرادشت (كتاب للكل ولا لأحد)، 2014، ص 66)، كما لا يمكن لهضبة فلسفية أن تحدث _حسب 'نيتشه'_ إلا بتفكيك الإرث اليوناني والانتصار لـ'ديونيسيوس' لأجل إعادة بعث الحياة في الوضع البائس الذي تشهده

أوروبا، تلك الثقافة التي عملت ما في وسعها كي "تستنبت من 'الحيوان البشري' المتوحش حيوانا أليفا متمدنا، حيوانا داجنا." (نتشه. ف، مولد التراجيديا، 2008، ص 253).

لذلك وجب التحرر أولا من الوهم الأخلاقي الذي كرسه المسيحية¹ في تماهيا مع نزعة الرتبة الأبولوجية، فليس أمام 'نتشه' إلا أن يكشر عن أنياب ويبرز مخالب فلسفية يمكنها أن تخدش حياء الحقيقة ممثلة في رمزية المرأة، فلسفة يمكنها أن تبعث بالإنسان المستقبلي إلى ما وراء الخير والشر، فأنا _كما يقول 'نتشه'_ "لست إنسانا بل عبوة ديناميت." (نتشه. ف، هذا هو الإنسان، ص153).

قوام المحفل 'الديونيسوسي' تمجيد الاحتفالية والرقص البوهيمي، وهي نزعة إحيائية من شأنها إيقاظ قوى الحياة التي تم قهرها نهائيا بتواطؤ نخب الفلاسفة حينما عمدوا على الإطناب والمبالغة في تمجيد العقل والعقلانية. للتحريض على الحياة بما هي حياة، يجب العودة إلى 'ديونيسوس' في نشوته، وهو ما يستدعي إيقاعا على نمط الشعر الغنائي، ف"حين يغني الإنسان ويرقص فهو يعبر عن نفسه كفرد من أفراد المجتمع الراقي. يبدو وكأنه قد نسي كيف يمشي وكيف يتكلم، وأن جناحين قد رُكبا له ليرقص في الأعلى. إن حركات هذا الإنسان تعبير عن السحر." (نتشه. ف، مولد التراجيديا، 2008، ص 85. 86).

إن سحر الموسيقى الراقصة يجعلها عصية حتى عن تدابير اللغة في مساعدتها من أجل إحلال الفهم محل الغموض وضمان الوصول على أعماق الأعماق، ومن هنا "فإن اللغة التي تمثل أداة وإشارة إلى الظواهر لا يمكنها أن تكشف النقاب عن الجوهر الداخلي للموسيقى، لكنها تبقى دائما، حين تحاول محاكاة الموسيقى، على اتصال سطحي معها، ولا يمكن لأي قدر من البلاغة الغنائية أن يقترب خطوة أخرى من الجوهر الحقيقي للموسيقى." (نتشه. ف، مولد التراجيديا، 2008، ص 117).

¹ - يبين 'نتشه' أنه من أهم المزايا التي كانت تمنحها الأخلاق المسيحية، أنها "تُضفي على الإنسان قيمة مطبقة، وهي قيمة تتعارض مع صغره ووجوده العرضي في نهر الصيرورة والزوال." (نتشه. ف، إرادة القوة (محاولة لقلب القيم)، 2011، ص 19).

من خلال قراءته لتاريخ الفلسفة والفن اليونانيين قراءة نقدية استطاع 'نتشه' أن يبتدع أسلوبا متميزا عمل من خلاله على قلب الفلسفة رأسا على عقب، باعتماده على المنهج الفيلولوجي من جهة وعلى الجينيولوجيا من جهة أخرى. بل لقد استطاع صياغة أسلوب زعزع به كبرى اليقينيّات الفلسفية التي خضع لها العقل الفلسفي منذ 'سقراط'، إذ لم يعد العقل مصدر اليقين المطلق ولا معيارا للصدق والكذب والكشف عن الحقيقة الجوهرية للموجودات كما راهنت على ذلك الحكمة الفلسفية منذ نشأتها، بل هو مجرد عضو صغير يسكن جسدنا الكبير.

تميز 'نتشه' بتمرده على النمط النسقي للفلسفة باعتبارها تقديسا للعقل، فهو يصف مراحل تطور العقل البشري بحسب وظيفته: "من الجمل إلى الأسد ثم إلى الطفل في براءته ونسيانه، حيث يتجلى الإنسان الأخير أو الإنسان المتفوق الذي له القدرة على الخلق، ولا يكتفي بأن يقتات مما تركه من قبله، فيكون بوسعه أن يسن لنفسه خيرا وشرا." (نتشه. ف، هكذا تكلم زرادشت (كتاب للكل ولا لأحد)، 2014، ص 85)؛ يقول: "سأشرح لكم تحول العقل في مراحل الثلاث فأنبئكم كيف استحال العقل جملا، وكيف استحال الجمل أسدا، وكيف استحال الأسد أخيرا فصار ولدا." (نتشه. ف، هكذا تكلم زرادشت (كتاب للكل ولا لأحد)، 2014، ص 53).

ثم يتساءل 'نتشه' عن "العمل الذي يقدر عليه الطفل بعد أن عجز عنه الأسد؟ ولماذا يجب أن يتحول الأسد المكتسح إلى طفل؟" (نتشه. ف، هكذا تكلم زرادشت (كتاب للكل ولا لأحد)، 2014، ص 55)، مبينا أن "الطفل طهارة ونسيان." (نتشه. ف، هكذا تكلم زرادشت (كتاب للكل ولا لأحد)، 2014، ص 55)، وهو "تجديد ولعب وعجلة تدور على ذاتها فهو حركة البداية وعقيدة مقدسة." (نتشه. ف، هكذا تكلم زرادشت (كتاب للكل ولا لأحد)، 2014، ص 55). ف"العقل يطلب الآن إرادته، ومن فقد الدنيا يريد الآن أن يجد دنياه." (نتشه. ف، هكذا تكلم زرادشت (كتاب للكل ولا لأحد)، 2014، ص 55).

كما يتجه بأسلوبه الساخر إلى المستهزئين بالجسد قائلا: "ما الجسد إلا مجموعة آلات مؤتلفة للعقل ومظاهر متعددة لمعنى واحد. إن هو إلا ميدان حرب وسلام، فهو القطيع وهو الراعي." (نتشه. ف، هكذا تكلم زرادشت (كتاب للكل ولا لأحد)، 2014، ص 61)، وهو بذلك لا يرغب في السير على خطى المستهزئين بالجسد، لأنه لا يرى فيهم "المعبر

الذي يؤدي إلى مطلع الإنسان المتفوق." (نتشه. ف، هكذا تكلم زرادشت (كتاب للكل ولا لأحد)، 2014، ص 62)، فثمة شيئا مشتركا ومميزا يتخلل كل كتاباته "من 'مولد التراجيديا' حتى آخر ما نشر (..) وهو 'توطئة لفلسفة مستقبلية.' (نتشه. ف، إنساني مفرط في إنسانيته (كتاب للمفكرين الأحرار)، 2014، ص 11).

إذن سنشهد مع 'نتشه' قلبا جذريا للفلسفة ولعبا بالكلمات لا حد له، فنا من فنون التعبير المجازي المكثف الذي لم يألفه الفلاسفة ولا يرضونه لعدم تجانسه مع 'اللوغوس' والنزعة العقلانية التحليلية التي أجازت طرد الشعراء من أكاديمية 'أفلاطون'، وجهة أخرى للفلسفة "تحمل بين طبائها شبكا وشراكا لطبور عديمة الحذر، وشيئا قريبا من تحريض خفي دائم على قلب التقييمات المعتادة والعادات المتعارف على قيمتها." (نتشه. ف، إنساني مفرط في إنسانيته (كتاب للمفكرين الأحرار)، 2014، ص 11).

كما سنشهد عمق نظر لم يألفه الشعراء ولغة تتجاوز لغة الشعر التي مبتغاها ومطلبها البديع والتحسين اللفظي ولو على حساب الفكرة والمعنى، ف'نتشه' لا يفكر في الفكرة فحسب بل يعيشها ويشعر بها أيضا، وهو سر قوة الإحياء لهذا النوع من الأفكار حيث إيمان الكاتب بفكرته والاقتراب من عالم الشعر دون تورط، بين حكمة واعتدال 'أبولون'1 واسترسال وتمرد 'ديونيسوس'2.

نحن أمام فضاء أسلوبى جديد على الفلسفة، تمتزج فيه قواعد اللغة والمنطق بطلاقة البلاغة وكثافة الاستعارة وأساليب الكناية ومحسنات البديع اللفظي والتخييل.

1- 'أبولون' (Apollon) ابن 'زيوس' (Zeus) و'لاتون' (Latone fille de Titan Céos et de la Titanide Phoebé)، إله الموسيقى والطب والضوء في العصور اليونانية القديمة. وظف 'نتشه' شخصية 'أبولون' بالإضافة إلى شخصية 'ديونيسوس' في كتابه 'ميلاد المأساة' (La Naissance de la Tragédie) لتمييز وإظهار أهم الدوافع نحو الحياة. (Toudouze. G, 1945, p. 12. 13).

2- 'ديونيسوس' 'Dionysos' ابن 'زيوس' (Zeus) و'سيميلي' (Sémélé)، إله النبيذ والخمر 'باخوس' له فضل تعليم الإنسان زراعة الكروم، ملهم طقوس النشوة والابتهاج، منظم المسرح من خلال التأسيس للتراجيديا والكوميديا اليونانية، إله الريف يمثل كل شيء عظيم عظم الطبيعة. (Toudouze. G, 1945, p. 17. 18)

إنها قدرة منتج النص على إسماع صوت أعماقه المفعمة بالمشاعر المتناقضة والألم المفعم بتجدد الحياة، تلك المشاعر وحدها تصبح قادرة على مراودة الحقيقة بما يشبه الكلمات المتقطعة والمتناثرة تنثر شظايا الغمام لحظة انفجار البوح الوجداني المثقل بالحكمة في لحظات جنونها¹، فكلّماته كما يقول: "مشوهة ذرية، غير أنني أتناولها من الفتات المتساقط من موائد ولائمكم فأستعملها حين أعلن الحقيقة للخيثاء." (نتشه. ف، هكذا تكلم زرادشت (كتاب لكل ولا لأحد)، 2014، ص 153).

ثانيا: جنون الحكمة و/أو حكمة الجنون؛

عبر 'نتشه' عن تلك الحالة الشبيهة بلحظة الهذيان بقوله: "أنا أعرف مزاياي تماما ككاتب (...) أحيانا تكون في كتي أعلى نقطة ممكنة للبشر ألا وهي السخرية، وحتى يستطيع الإنسان أن يسيطر عليها، عليه أن تكون له أرق أصابع وكذلك أجراً قبضات (...) إن كلمة واحدة مني كفيلة بقذف كل الغرائز الشريرة في الوجه."

لقد عرف تاريخ الأشكال التعبيرية عن طريق الكتابة أسلوب الشذرات منذ 'هراقليطس' و'بارمنيديس' و'ديمقريطس' ثم بعد ذلك عندما انتشرت ظاهرة كتابة الخواطر خاصة مع 'باسكال' في كتابه 'الخواطر' و'جان جاك روسو' في 'الاعترافات'، إلى أن أصبح جنسا أدبيا مع 'موريس بلانشو' (2003/1907).

لكنه مع 'نتشه' فحسب سيصبح هذا الأسلوب في التعبير منهجا قائما بذاته، ف"قبل عصري لم يعرف الناس ماذا يمكن أن يفعلوا باللغة الألمانية، ماذا يمكن أن يفعلوا باللغة أصلا. إن فن الإيقاع الكبير أو الأسلوب العظيم في النثر، من أجل التعبير عن الثنايا الهائلة للعواطف الانفعالية الجليلة والواثقة للطبيعة كنت أنا أول من يكتشفه" (Nietzsche. F, p. 29).

¹ يقول "نتشه": "يحدث أن الأكثر حكمة بيننا سيصبح مجنون الإيقاع، ليس لأنه سيحس بفكرة كأنها أكثر صحة بمجرد أن لها شكلا بحريا (موزونا) (...) هل هناك شيء أكثر إثارة من أن نرى الفلاسفة الأكثر رصانة، الأشد صرامة عادة فيما يتعلق باليقين، يرجعون دائما في ذلك إلى حكم شعرية، لمنح أفكارهم متانة وقابلية للتصديق؟" (نتشه. ف، العلم المرح، 1993، ص 103).

إن زعزعة واختلال العلاقة بين الدال والمدلول هو أسلوب مساءلة الحقيقة عند 'نتشه' والإزاحة باستحضار 'الأوديسا' و'الإلياذة'، وقد كانت البدايات الأولى عند التحاقه بقسم الثيولوجيا بجامعة 'بون' عام 1869، وذلك بعد متابعتة دروس الفيلولوجيا الكلاسيكية بإشراف أستاذه 'فريدريك ويلهام ريتشال' (Friedrich Wilhelm Ritschel) بجامعة 'لايبزيغ'، حيث أنجز بحثا مبكرا عام 1866 تحت إشراف أستاذه حول الشاعر الإغريقي 'ثيوغنيس الميغاري' (Théognis de Mégare)، وهي المرحلة التي اطلع فيها على أعمال الفيلسوف الألماني 'شوبنهاور' من خلال مؤلفه الشهير 'العالم كإرادة وتمثل'، وتعرف فيها على الموسيقار الملمهم 'فاغنر' (Wagner) الذي سينتقد أعماله بعد فترة إعجاب غريبة.

يوصف 'فريدريك نتشه'، الذي عاش حياة مضطربة¹، بأنه فيلسوف غير نسقي أو بالأحرى متمرد على النمط السائد والمألوف في الكتابة الفلسفية الكلاسيكية، لذلك يلاحظ استعصاء كتاباته² على كل قارئ، لأنها أخذت منحى جديدا وأسلوبا يراود اللغة والمعنى

¹- نتشه فريدريك (Nietzsche Friedrich) فيلسوف ألماني ولد عام 1844 في مدينة روتشن (Röchen) درس فقه اللغة الكلاسيكي في جامعة بون (Bonn) ليصبح فيها بعد ذلك أستاذا عام 1869، حيث تعززت صداقته مع 'شوبنهاور' (Schopenhauer) وتعرف على 'فاغنر' (Wagner) الذي خيب ظنه. بداية من عام 1879، تدهورت حالته الصحية فعاش عزلة في جبال الألب وجنوب إيطاليا. باءت علاقته العاطفية مع اليهودية الروسية (Lou Andréa-Salomé) _ التي اعتبرها حبه الوحيد _ بالفشل بفعل تدخل أخته وتفضيلها لصديقه الكاتب "بول ريه" عليه، والتي ستصبح تلميذة "سغموند فرويد" الذي استعار من خلالها مفهومي اللذة والألم. رغم حالته الصحية واصل الكتابة فانهت به الأمر بحالة من الاضطراب العقلي ونوبات جنون عام 1889. تكفلت به والدته وأخته خلال 11 سنة من العزلة والصمت وفقدان الوعي حتى وفاته سنة 1900. (Clement. E, 1994, p. 245).

²- يقول 'نتشه' مبينا ذلك بوضوح: "أن تدرك من خلال كتاباتي أنك بحضرة خبير نفساني، خبير نفسياني ليس له من مثيل، فتلك على أغلب الظن هي أولى قناعة ينبغي أن يتوصل إليها قارئ جيد-قارئ من ذلك الصنف الذي أستحق، قادر على قراءتي بالطريقة التي كان الفيلولوجيون القدامى يقرؤون بها هوراس." (نتشه. ف، هذا هو الإنسان، ص 74).

بالاستعارات المكثفة ويميل بقوة إلى المجاز والشعرية وهو ما يعرف عند النقاد بالكتابة الشذرية¹، أو ما يسميه 'جيل دولوز' ب'الكتابة الجامعة'².

بوعي منه يدمج 'نتشه' 'في الفلسفة وسيلتي تعبير، الكلمة الجامعة والقصيدة، وهذان الشكلان بالذات يستبعان تصورا جديدا للفلسفة، صورة جديدة للمفكر والفكر' (دولوز، ج، 1998، ص 19)، حتى يبدو فخورا بما هو عليه أسلوبه من قدرة لا نظير لها، يقول: "لم يكن لأحد قبلي أن يعرف ما الذي يمكن أن يصنع من اللغة الألمانية، بل ما كان يمكن أن يصنع من اللغة عامة. إن فن الإيقاع العظيم، والأسلوب الراقي للانتظام الدوري للتعبير عن الحركات والانحدارات الرهيبة للصبوة الجليلة والجملة قد وقع اكتشافها من قبلي أنا" (نتشه، ف، هذا هو الإنسان، ص 74).

هذا الجنس من الكتابة المثقلة بالاستعارات الشعرية المكثفة لدى 'نتشه'، رغم امتعاضه من الشعراء³ الذين "لم يبلغوا في نظره درجة النقاء." (نتشه، ف، هكذا تكلم

¹ - "الشذر قطع من الذهب يلقط من المعدن من غير إذابة الحجارة، ومما يصاغ من الذهب فرائد يفصل بها اللؤلؤ والجوهر، فأما قولهم: شذر كلامه بشعر، فمولد وهو على المثل. والتشذر: النشاط والسرعة في الأمر. (ابن منظور، ج، 2006، ص 54.55).

أما الكتابة الشذرية / *L'écriture fragmentaire* هي ميزة أسلوب الكتابة الفلسفية الذي تميز به الفيلسوف نتشه دون غيره، حيث وصف أسلوبه بقوله "إن مرماي أن أقول في عشر جمل ما يقوله غيري في كتاب". من خصائصه التكثيف والتميز والشحن الدلالي والنفور من الصرامة المنطقية. وقد لوحظ هذا الأسلوب في الكتابات الصوفية العرفانية، كما هو الشأن عند 'الحلاج' مثلا في كتاب 'الطواسين'.

² - "الكلمة الجامعة هي بالضبط، وفي آن معا، فن التفسير والشيء الواجب تفسيره؛ والقصيدة هي في الوقت ذاته فن التقويم والشيء الواجب تعيين قيمته. والمفسر هو الفيزيولوجي أو الطبيب، ذلك الذي ينظر إلى الظاهرات على أنها علامات مرضية ويتكلم بكلمات جامعة. أما المقوم فهو الفنان الذي يتأمل 'منظورات' ويخلقها، يتكلم بواسطة القصيدة. إن/فيلسوف المستقبل فنان وطبيب باختصار، هو مشرع." (دولوز، ج، 1998، ص 19.20).

³ - بقول 'نتشه' مستصغرا أمر الشعراء: "أنظر إلى صغار الناس وأخص منهم الشعراء بأي بيان ملتهب يشكون الدهر وتصاريفه، وإذا ما أصغيت إلى هذا الأبن الشاكي فلا يفوتك أن تنصت لنبرات اللذة في كل شكوى." (نتشه، ف، هكذا تكلم زرادشت (كتاب لكل ولا لأحد)، 2014، ص 255).

زرادشت (كتاب للكل ولا لأحد)، 2014، ص 160)، لأنهم "يقتبسون من البحر غروره". (نتشه. ف، هكذا تكلم زرادشت (كتاب للكل ولا لأحد)، 2014، ص 160)، هو نمط تعبير، عمد هذا الفيلسوف إلى إبداعه أو إحيائه لحاجة فلسفية حيث لم يعد النمط الكلاسيكي للكتابة الفلسفية يفي بالغرض الذي يريده من الفلسفة من جهة، وتماشيا مع طبعه وخصوصيته الشخصية من جهة ثانية¹.

الكتابة عند 'نتشه'، هي تعبير عن الكاتب في حد ذاته، ذلك لأن "الكتب وتحرير نصوصها هي أشياء مختلفة لدى شتى المفكرين: واحد قد عرف كيف يختلسها من أشعة معرفة كان يريقها يومض فيه والتي تمثلها (أي الأضواء): آخر لا يعطي إلا الظلال (إلا) الصور المعكوسة بالرمادي والأسود لما نشأ البارحة في نفسه." (نتشه. ف، العلم المرح، 1993، ص 106).

وفي مقاطع أخرى يبين "نتشه" قوة وجاذبية آلية التعابير الشعرية: "عند الفيثاغوريين كان الشعر يبدو مذهبا فلسفيا أكثر من وسيلة فن تربوي: ولكن قبل أن يكون هناك فلاسفة بوقت طويل، كنا نعتزف للموسيقى بميزة تحرير الأهواء، تطهير الروح (...) إن melos (النشيد/القصيد الغنائية) تعني، بحسب جذر الكلمة، أنها وسيلة للتسكين، ليست لأن النشيد رخم في حد ذاته، بل لأن فعله اللاحق هو أن يسكن (...) إن النشيد يفتن الشياطين الذين نعتقد حيوتهم هنا، يجعلهم خدومين، يطوقهم ويحولهم أداة للناس (...) يبدو أن التعزيم والرقبة السحرية هما أصل للغناء الشعر. عندما استعمل البيت الشعري لينطق بوحى _ والإغريق يرون أن البحر السداسي المقاطع قد ابتكر في "دلفيس" (Delphis) _ كان الإيقاع." (نتشه. ف، العلم المرح، 1993، ص 102).

¹ - "أريد أن أقول بالمناسبة كلمة سريعة حول فن الأسلوب لدي. نقل حالة ما أو توتر داخلي تحدثه الانفعالات النفسية بواسطة علامات، وكذلك وتيرة توارد هذه العلامات؛ ذلك هو الكنه الحقيقي لكل أسلوب. وبما أن تعدد الحالات النفسية يبلغ مستوى خارقا للعادة لدي فإن إمكاناتي الأسلوبية متعددة أيضا؛ أكثر الأساليب تنوعا على الإطلاق مما لم يكن لأحد البتة أن يحوز على مثله." (نتشه. ف، هذا هو الإنسان، ص 73).

لذلك كان يعتقد أنه من الصعوبة بمكان أن يتوفر في زمانه على الأقل من القراء من له القدرة على ترجمة وتأويل معاني تلك الكلمات التي يقذف بها في الوجوه، فحسب تعبيره، وحده من "يعرف كيف يتنفس من الهواء الذي يملأ كتاباتي يدرك أنه هواء أعالي؛ هواء شديد قاس، وعلى المرء أن يكون مجبولا لمثل هذا الجو وإلا فإن الخطر سيكون غير يسير، خطر الإصابة ببرد." (نتشه. ف، هذا هو الإنسان، ص 08.09).

لا يمكن لأحد من القراء المبتدئين الذين هم أكثر انتشارا أن يدعي فهم 'نتشه'، خاصة في أسلوبه الساخر²؛ فكل "من يعتقد أنه فهم شيئا من كتاباتي فقد فهم مني ما فهم طبقا لصورته الخاصة، وفي أغلب الأحيان شيئا مناقضا لي تماما مثل اعتباري 'مثاليا'." (نتشه. ف، هذا هو الإنسان، ص 67)، إنه يشبه الكتابة بفن إطلاق العنان للريشة وهي "تخريش" (نتشه. ف، العلم المرح، 1993، ص 37).

كان 'نتشه' مدركا تماما لما يعاينه القراء في فهم ما يكتب، بل كان يبلغه أيضا صدى انطباعاتهم حول نمط الكتابة لديه، فهو يذكر: "أشار لي أستاذ من جامعة برلين بكل مودة بأنه من الأفضل لي لو أتوخي نوعا آخر من الكتابة؛ إذ لا أحد يقرأ هذا الذي أكتبه." (نتشه. ف، هذا هو الإنسان، ص 66).

لكن مع ذلك كان يرى بضرورة أن يرتقي القارئ إلى مستوى الكتابة وفن التعبير لديه، لقد علّق يوما على انطباع أحد أصدقائه بقوله: "عندما عبر لي الدكتور هاينرش فون شتاين ذات يوم عن تدمره الصادق من أنه لم يفهم كلمة واحدة من زرادشتي، أجبته بأن لا بأس في ذلك: أن يكون الواحد قد فهم ست جمل من زرادشت؛ بمعنى أن يكون قد

¹- يقول: 'أنا متعطش لأستاذ في فن الأصوات يعرف كيف يتعلم أفكاري ويعبر عنها في المستقبل بلغته الخاصة: بذلك سأنفذ بشكل أفضل إلى أذان وقلوب الناس. الأصوات تمكن من إغوائهم في كل خطأ كما في كل حقيقة: من ذا سيفكر في إبراز خطأ صوت؟' (نتشه. ف، العلم المرح، 1993، ص 118).

²- يقول 'نتشه' بهذا الصدد: "والحق أنه من أجل أن نتمرن على القراءة بوصفها فنا، إنما ثمة قبل حاجة ماسة إلى شيء، وهو اليوم قد وقع إغفاله تماما ولذلك ما زال هناك وقت حتى تصبح كتاباتي 'قابلة للقراءة'، شيء إزاءه ينبغي على المرء أن يكون أشبه بالبقرة وليس، على كل حال، ب'الإنسان الحديث'؛ أعني الاجترار.." (نتشه. ف، في جينولوجيا الأخلاق (كتاب سجالي)، 2010، ص 41).

عاشها، فإن ذلك سيرفعه إلى مقام فوق منزلة الفانين ليس بإمكان 'إنسان حديث' أن يرتقي إليه." (نتشه. ف، هذا هو الإنسان، ص 66).

لا يتورع 'نتشه' في وصف نفسه، بأنه ليس "من أولئك الذين يفكرون واليراع في اليد، ولا من أولئك الذين يستسلمون لأفكارهم، أمام الدواة، جالسين والنظر مثبت على الورق." (نتشه. ف، العلم المرح، 1993، ص 107)، فالكتابة انسياب وكأنها تكتب ذاتها. بذلك فهو يصرح: "أعرف إلى حد ما امتيازاتي ككاتب." (نتشه. ف، هذا هو الإنسان، ص 71).

يمكن القول بأن لنمط الكتابة الشَّدَرِيَّة القدرة على استيعاب جميع الأجناس الأخرى، وبهذا يكون 'نتشه' قد مارس في كتاباته "جميع الأجناس. إذن الأسلوب يمكن أن يتقدم على أنه مهماز، كمهماز يتقدم سفينة ذات أشرعة: هذا الحَيَزوم Rostrum يشق عباب البحر كما يشق صفوف العدو." (دريدا. ج، 2010، ص 84)، فبالتالي "يضيع نتشه في شبكة النص كعنكبوت غير مدرك ما يجري فيها." (دريدا. ج، 2010، ص 138).

ثالثا: تفكيك 'الغاز' 'نتشه'؛

ينطلق نتشه، بحسب 'دريدا'، من صورة تكاد تكون رمزية وهي أن "الحقيقة امرأة أو صيرورة احتجاج كما يتوخاه الحياء الأنثوي." (دريدا. ج، 2010، ص 93). هنا يغرق الخطاب الفلسفي ويصبح عرضة للضياع والتهيه، ذلك لأنه "ليس للمرأة حقيقة لأن الحقيقة كامنة في نأي الحقيقة عن ذاتها. وما المرأة سوى الاسم الذي يجمع الحقيقة ونقيضها." (دريدا. ج، 2010، ص 92). وإذا افترضنا "أن الحقيقة امرأة، أليس علينا أن نشك أن جميع الفلاسفة، بوصفهم عقائديين أساؤوا فهم النساء 'sich schlecht auf weiber verstande'، أو أساؤوا القيام بدورهم؟" (دريدا. ج، 2010، ص 94)، هكذا تكلم 'نتشه'...

إن صعوبة فهم وتفسير فلسفة 'نتشه' نابع من مسألة مزدوجة؛ فمن جهة يبدو أن النقاد الأدباء لا يحملون 'نتشه' على محمل الجد كفيلسوف، ومن جهة ثانية يعتبره آخرون فيلسوفا كباقي الفلاسفة السابقين (Jaspers. K, 1950, p. 14)، فجاءت الدراسات حول

'منتشه' غرقت في مسار الاقتباسات التعسفية لفقرات وجمل مبتورة، ومن هنا تبدأ المشكلات التأويلية التي غالبا ما تنتهي بتملك 'منتشه' 1 عوض فهم فلسفته كما أرادها.

لذلك يوصي 'ياسبرس' أننا "عندما نقرأ 'منتشه'، يجب أن نعرف اللحظة التي كتب فيها ما نحن بصدد قراءته." (Jaspers. K, 1950, p. 21)، إذا كان بالإمكان الحديث عن "فكرة مركزية في فلسفة 'منتشه'، فهي إرادة القوة أو إرادة الحياة." (Jaspers. K, 1950, p. 14)، وبحسب 'منتشه' "يجب علينا أن نولد دوما أفكارنا من صميم آلامنا، وبأمومة ننعم عليها بكل ما فينا من حياة، من حب، من رغبة، من شغف، من وجع، من شعور، من مصير من حتمية." (منتشه. ف، العلم المرح، 1993، ص 46).

لتجاوز الصعوبة في فهم 'منتشه' يقترح 'ياسبرس' ضرورة معرفة ثلاثة أجزاء رئيسية: "أولا حياته، باعتبارها ركيزة لا غنى عنها تماما للحدث 'منتشه'؛ ثانيا، مفاهيمه الأساسية باعتبارها مظهرات للحركة الداخلية الأولية، في تنوع محتوى فكره؛ ثالثا؛ نسعى لفكره في مجمل وجوده." (Jaspers. K, 1950, p. 24)، وهنا يكمن المشكل كما يبدو.

يمكن القول بأن استعراض المفاهيم الأساسية في كتابات 'منتشه'، يبين بالتفصيل أنه لا يوجد مفهوما مركزيا أحاديا، بمعنى لا يمكن الكلام عن مركز للنص يمكن من خلاله

¹ - يقول 'منتشه': "لنضرب مثلا بكتابي 'زرداشت'، فأنا لا أقبل أن يعد أحد عارفا به، من لم يكن، في يوم من الأيام، عند كل واحدة من كلماته، جريحا في الأعماق، تارة، ومغبطا في الأعماق، تارة أخرى: عندئذ فحسب يحق له أن يتمتع بامتياز المشاركة المهيبة في العنصر الهلكوني ((halkyonish: نسبة إلى هلكيون (لفظ من أصل يوناني) – اسم طائر بحري خرافي يكون اللقاء معه إعلانا عن الهدوء والسلام (نقلا عن المترجم، ص: 41))) _ الذي خرج هذا الأثر من رحمه، في وضوحه المشمس، وتناثيه، وسعته، ويقينه. وفي حالات أخرى، فإن شكل الشذرات يشكل صعوبة ما: تلك التي تكمن في أن المرء اليوم لا يأخذ هذا الشكل على محمل الجد كفاية. إن شذرة ما، سكبت وصبت كأحسن ما يكون، لا يكفي أن تقرأ حتى تفك 'طلاسما'؛ إذ ربما عندئذ فقط يجب أن يبدأ تأويلها، وهو ما يتطلب فنا في التأويل." (منتشه. ف، في جينولوجيا الأخلاق (كتاب سجالي)، 2010، ص 40. 41).

نسج استراتيجية للقراءة والفهم، لكن إذا كان بالإمكان الحديث عن فكرة مركزية في فلسفة 'نتشه'، فهي إرادة القوة أو إرادة الحياة". (Jaspers. K, 1950, p. 14).

خاتمة ومناقشة:

لقد تميزت كتابات 'نتشه' بإبداعه أسلوبا جديدا، منتقدا فساد مزاج الفلاسفة جميعا لخضوعهم لدوافع مرضية سيطرت على عصورهم وأماكن نشأتهم، متجاوزا ومحققا شأن أعظم الفلاسفة على مر العصور، ك'سقراط' الذي _ حسب 'نتشه' _ ظل "عقله الهائل يتأرجح بين الإحجام والإقدام دون حسم ما". (نتشه. ف، مولد التراجيديا، 2008، ص 172). إنه أسلوب يجمع بين الشعر والنثر، بل يتجاوزهما إلى ما وراء ذلك.

كما أن حياة العزلة الرهيبة والمعاناة التي امتدت واستمرت مدة طويلة من حياة 'نتشه' أثرت جليا في أسلوبه الذي يتميز بقوة الرفض والتحكم والسخرية والانتقام من الألم بنزعة أبيقورية، ومن ثم الانتقام من ممجدي صنم 'العقل' / الوهم الباعث على الاستياء، الذين لا يعرفون حقيقة وطبيعة العقل، إذ أن "العقل في حد ذاته ليس سوى نوع من هذا الاستقلاب الكيميائي". (نتشه، هذا هو الإنسان، صفحة 42).

إنه يعتقد بأن أسلوبه الذي يغرف من فن 'الديثيرامب' _ الذي تتلاحم فيه الموسيقى والرقص والغناء _ كفيل بأن يصرفه فساد المزاج الذي سيطر على جل الفلاسفة، ويلهمه المرح الممزوج بالعنفوان الوجودي في هذيان يجنبه مآسي العقل بالمعنى الكلاسيكي. أسلوب يجمع بين الإيقاع الشعري والكتابة السردية النثرية، حيث أن "كل الأفكار المسبقة تأتي من الأحشاء". (نتشه. ف، هذا هو الإنسان، ص 41)، وأن "خمولا صغيرا للأمعاء يكفي إذا ما تحول إلى عادة سيئة لأن يجعل من عبقرى شيئا رديئا" (نتشه. ف، هذا هو الإنسان، ص 42)، وكلمة واحدة منه تكفي لـ "قذف كل الغرائز الشريرة في الوجه". (نتشه. ف، هذا هو الإنسان، ص 71).

اللجوء إلى الرمز والإيحاء كأسلوب في الكتابة الفلسفية ليس مجرد عبث وملهاة كما يعتقد البعض، بل هو نزعة إحيائية تنبعث من الانقراض في مراودة للحقيقة التي تم طمسها بفعل تسلط الفلسفة القائمة على الاستياء باستعمال ومزاوجة العقل باللغة. فليس هناك من طريقة إلا مداعبتها مجازيا وشعريا لتقليب مواجع الرمز المكتف.

لقد وصفت كتابات 'نتشه' وكأنها تعبير عن رجل سيكولوجي ليس له نظير، هذيان يعصف بالمعقول واللامعقول معا، وهو ما يظهر من خلال انطباعات القراء. لكن ليس 'نتشه' بعصابي ولا هو حالة جنونية مرضية أدت إلى هذا المستوى من الإبداع، وإنما هي قدرة على كشف الأوهام التي ترسبت تاريخيا وتشكلت في مفاهيم ظللت العقل البشري قرونا، وذلك من خلال اختراق جدرا اللغة.

إن هذا الصنيع الفلسفي الذي قام به 'نتشه'، لهو من قبيل الابداع الأسلوبي الذي لا نكاد نعثر له على نظير، إنها أسلوبية مجازية فريدة اختلط فيها؛ العقل بالجنون، الألم بالحياة، الميثوس باللوغوس، الروح بالجسد، إنه باختصار: العقل المرح في مواجهة ضجر العقل البائس الذي سيطرت تجلياته على مشهد تاريخ الفلسفة بوجه عام. وهو أسلوب أعاد النقاش في مسألة الحقيقة/العقل التي سادت في مرحلة 'السوفسطائية' و'سقراط'، وتم من خلاله التدشين لروح فلسفية جديدة تجلت من خلال حفريات 'ميشال فوكو' وتفكيكية 'جاك دريدا'، ثم تبلور الفكر التأويلي الذي وضع العقل أمام رهاناته وعقلانياته المتعددة.

يبدو من جهة مقابلة أن أسلوبية 'نتشه' التي انعكست في طريقة كتاباته ليست سوى انتكاسة أخرى للعقل الفلسفي بشكل عام، انتكاسة جنح فيها العقل إلى تدمير أصوله ومبادئه، محاولا الانفكاك من ذاته، أو ربما محاولا البحث عن الحقيقة خارج ذاته المعلنة منذ فنّ التّوليد السّقراطي وديداكتيك المحاوراة الأفلاطونية التي هيأت المناخ الفكري ل'أرسطو' ومهدّت للإعلان التاريخي عن الاكتشاف/السجن (العظيم) أو الآلة والقانون (الأورغانون) الذي يجب أن تحتكم إليه كل محاولة في السعي نحو الحكمة.

إن مشكلة (الحقيقة/اللغة/العقل) تحولت إلى معضلة في الخطاب الفلسفي المعاصر (ما بعد 'نتشه')، وهو ما أدى إلى عودة اللغة إلى مركز النقاش الفلسفي، تجلّى ذلك بوضوح من خلال أعمال 'حلقة فيينا' و'الوضعية المنطقية' على وجه الخصوص. غير أن ذلك النقاش لم يحسم المسألة التي تم تدشينها وعرفت ولادتها الأولى مع فن 'المايوتيك'/'التوليد السقراطي'.

قائمة المراجع:

- بيير جيرو. (بلا تاريخ). *الأسلوبية*. (منذر عياش، المترجمون) حلب، سورية: مركز الإنماء الحضاري للدراسة والترجمة والنشر.
- جاك دريدا. (2010). *المهماز: أساليب نتشه* (الإصدار 01). (عزيز توما، المترجمون) سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع.
- جماعة من الأساتذة السوفييت. (1976). *موجز تاريخ الفلسفة* (الإصدار 01، المجلد 01). (توفيق ابراهيم سلوم، المترجمون) دمشق، سوريا: دار الجماهيرية العربية.
- جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور. (2006). *لسان العرب*، ج 07 (المجلد 07). بيروت، لبنان: دار صبيح.
- جيل دلوز. (1998). *نتشه* (الإصدار 01). (أسامة الحاج، المترجمون) بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- عبد الوهاب المسيري. (بلا تاريخ). *نتشه فيلسوف العلمانية الأكبر. مجلة أوراق فلسفية* (01).
- فريدريك نتشه . (2011). *إرادة القوة (محاولة لقلب القيم)*. (محمد الناجي، المترجمون) المغرب: إفريقيا الشرق.
- فريدريك نتشه. (1983). *الفلسفة في العصر المتساوي الإغريقي* (الإصدار 02). (سهيل القش، المترجمون) بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- فريدريك نتشه. (1986). *أفول الأصنام* (الإصدار 01). (بورقية حسان، و محمد الناجي، المترجمون) المغرب: إفريقيا الشرق.
- فريدريك نتشه. (1993). *العلم المرح* (الإصدار 01). (حسان بورقية، و محمد الناجي، المترجمون) المغرب: إفريقيا الشرق.

- فريدريك نتشه. (2008). *مولد التراجيديا* (الإصدار 01). (حسن عبيد شاهر، المترجمون) اللاذقية، سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع.
- فريدريك نتشه. (2010). *في جينياالوجيا الأخلاق (كتاب سجالي)* (الإصدار 01). (فتحي المسكيني، المترجمون) تونس: دار سيناترا.
- فريدريك نتشه. (2013). *الفجر* (الإصدار 01). (محمد الناجي، المترجمون) المغرب: إفريقيا الشرق.
- فريدريك نتشه. (2014). *إنساني مفرط في إنسانيته (كتاب للمفكرين الأحرار)* (الإصدار 01). (علي مصباح، المترجمون) بيروت، لبنان: منشورات الجمل.
- فريدريك نتشه. (2014). *هكذا تكلم زرادشت (كتاب للكل ولا لأحد)*. (فارس فليكس، المترجمون) جمهورية مصر العربية: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- فريدريك نتشه. (بلا تاريخ). *هذا هو الإنسان*. (علي مصباح، المترجمون) بيروت، لبنان: منشورات الجمل.
- وولتر ستيس. (2005). *تاريخ الفلسفة اليونانية* (الإصدار 02). (مجاهد عبد المنعم مجاهد، المترجمون) بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- Clement, E. e. (1994). *La Philosophie de A à Z*. Paris: Hatier.
- Foucault, M. (1966). *Les Mots et Les Choses*. Paris: Gallimard.
- Jaspers, K. (1950). *Nietzsche(Introduction à sa Philosophie)*. (H. Niel , & Et Autres, Trads.) Paris, France: Gallimard.
- Nietzsche, F. (s.d.). *Humain Trop Humain*. Paris: Gallimard.
- Toudouze, G. (1945). *Dieux et Héros de la Grèce Antique*. France: Floury.